الخطاب و التاريخ في فلسفة ميشال فوكو

د. بومحراث بلخير

مخبر الأنساق، البنيات، النماذج والممارسات. جامعة وهران2

تندرج أعمال ميشال فوكوMichel Foucault، على غرار الفلاسفة المعاصرين له، وبتقاطعه مع فلسفات التاريخ ، أنه لا يقدم تصور عام على ما ينبغي أن تكون عليه الحياة، كما لا يهتم بوضع نظرية مترابطة ومتراصة تسعى إلى بلورة مشروع اجتماعي، كل ما يطمح له فوكو فحص الممارسات وبهذا"نفهم نعت "دريفوس" و "رابينوف" لمنهجية فوكو بمنهجية وصف مختلف الأشكال التاريخية للممارسة الخطابية، ومن هنا أيضا نفهم التسمية المقترحة من طرفهما، وهي نظرية الممارسة الخطابية لا نظرية الخطاب"[1]، فهذه الممارسات تشكل ميدان لفهم الواقع المعاش عن طريق كشف ملفوظاته*، وتعرية استراتجيات الخطاب، بالتشكيلات الخطابية، "ففلسفة فوكو من هذه الناحية، تتميز بالغناء والثراء، سواء من حيث طرائقها المختلفة وموضوعاتها المتعددة وأسئلتها المخالفة لنمط الأسئلة التقليدية، أو الآفاق التي تفتحها، أو للقيم التي تحاول تأكيدها، وخاصة قيم النقد والاختلاف"[2].

هنا برز صيت المفكر فوكو عندما عمل على مسائلة العقل الغربي، ومسلمات الحداثة التي فرضت إبستمية معينة على طريقة التفكير وفهم الأشياء. انطلاقا من توسع عظمة العلوم التجريبية، التي ادعت الشرعية المعرفية في الإحاطة بمعرفة أخبار ذات الإنسان والزعم بحقيقتها. عمل فوكو على مسائلة العقل الحداثي، بإعادة التفكير فيه، عن طريق رسم معالم وجوده ووظائفه التي تحفظ له ذاته، الذي تنكر لها وزاغ عليها، بمناداته بالحقيقة المطلقة والمركزية، التي يدينها فوكو ويفضحها عبر مشروعه الفلسفي الأركيولجي، المدافع عن مشروعية الهامش والاختلاف في فضح وكشف وتعرية، أساليب التسلط التي توهم العقل والمعرفة بإيجاد المبررات والدوافع لسيطرة على الواقع الراهن، بواسطة الممارسات الخطابية، المتحايلة في ممارستها لتأكيد إطلاقيتها وتكميم خصوصيات الآخر، والحريصة في تعميمم مركزيتها باسم ما يطلق عليه الإنسانية، متجاهلة الآخر وما يحمله من حضارة وثقافة وحياة، وهو عنصر من عناصر هذه الإنسانية.

من هذا اكتسى المنهج الأركيولوجي"التصريح الذي يتضمن عنصرين أساسيين هما: الوصف كطريقة والأرشيف كموضوع. وهو ما نجده في كتاب أركيولوجية المعرفة"[3]. كما نجد في المشروع الفوكوي إشارة إلى موضوع السلطة، فبهذا ينصب جهده في تحديد ونقد مفهوم السلطة، ليس بتحديد أطرها النظرية والفكرية، وتأصيل جوهرها وماهيتها، وما وجب أن تكون عليه، بل بتحليل الواقع العملي لسلطة من خلال الراهن والحضور وفي شتى حقول الحياة، وذلك بفهم معنى وظائفها واستراتجياتها، التي تعد موضوعا لكشفها ومجابهتها، لإحقاق الاختلافات والتنوعات والدفاع عنها، باعتبارها غاية يسعى الفكر الفوكوي على الخصوص، وفلاسفة الإختلاف على وجه العموم لإيضاحه وتبيانه" تحليل الحاضر لا يكون بدراسة المعرفة السلطة

فقط، وإنما يهدف إلى تحرير الفرد ، هذه المسألة التي أهملها الباحثون في فلسفة فوكو، لذلك نرى أنه من غير الممكن الحديث عن التاريخ أو الفلسفة أو الخطاب عند فوكو دون الحديث عن الإنسان والحقيقة والحرية وقول الحقيقة"[4]. فمن خلال تعدد وتنوع المواضيع المطروحة في الفكر الفوكوي، سنحاول من خلال هذه الدراسة الاعتناء بمسألة الخطاب والتاريخ، ومدى درجة أهميتها وحضورها في الكتابات الفوكوية. نظرا للارتباط الوثيق بين الخطاب والتاريخ.

عرض فوكو أشكلته problématisation، لفهم المواضيع التي طرحها ودرسها بعمق، فالأشكلة التي خطها فوكو في مشروعه الفلسفي، تقوم على تشخيص حاضر الواقع، الذي يستدعي تعدد وتنوع واختلاف في الرؤى من أجل معرفته وفهم إستراتجية حقيقته، ضاربا عرض الحائط البديهيات والمسلمات، التي اتخذها التراث الفلسفي، أقانيم يسبح بها ويعاود تراتيلها دون كملل ولا ملل، من أجل امتلاك بطاقات هوية الانتماء إلى الفكر الفلسفي ذلك" أنَ الفكر ليس ما يجعلنا نؤمن بما نفكر أو نرضى بما نفعل، بل هو ما يجعلنا نطرح مشكلة ما نحن عليه بالذات. ليس عمل الفكر أن يدين الشر الذي قد يسكن كل ما هو موجود، بل أن يستشعر الخطر الذي يمكن في كل ما هو مألوف وان يجعل كل ما هو راسخ موضوع الإشكال"[5].

لا يتوانى فوكو في تمرده، بإيجاد طرح مواضيع جديدة وثائرة على المألوف الفلسفي والمعمول به. بهذا يصبح فوكو خارج الانتماء الفلسفي، بسبب إيجاد المواضيع الهامشية والجانبية عن الفلسفة، التي ستغني هذه الأخيرة بأسئلة جديدة تعمق روح الفكر الفلسفي،"فالخيط الموجه لهذا الاهتمام المزدوج، هو مفهوم الأشكلة الذي يسمح بضبط علاقة البشر بالحقيقة سواء من خلال الممارسة الخطابية أو الغير الخطابية، كما يمكن الوقوف على تاريخية تلك المفاهيم وطابعها المتميز بالندرة...فما يجمد الفكر هو تسليم ضمنا أو صراحة بشكل معين من الأشكلة والبحث عن حل يمكن أن يحل الذي نقبله"[6]. بهذا تعد الأشكلة صمام الأمام، في التمييز بين الحقيقة والزائف، باعتبارها أداة تحليلية هدفها الحقيقة وفقط ، متخذة من انطولوجيا** الذات، ميدانا لتمرس فيه، ودراستها لحجب الزائف، وتوضيح الحقيقة في راهينتها actuelالمعاشة.

عمل فوكو أيضا من خلال مشروعه المنهجي والفكري على خلخلة منظومة المعرفة التاريخية، وذلك بإثارة العديد من الأسئلة التي طالما أرقت تلك الرصيد التاريخ، الذي طبع الأفكار بنظرة دوغمائية، وغرب الأذهان ضمن منظومة معرفية أحاديه، تُردَد ويُدَافع عنها دون أن تُفهم من جوانبها المتعددة. هذه الأخيرة هي التي كشف عنها فوكو من خلال كتاباته ذات التوجه التاريخي من خلال "رسم خطوطه العامة والأولية في الكلمات والأشياء وتاريخ الحمق وميلاد العيادة، وهو مشروع نسعى فيه إلى قياس التحولات التي تحدث عامة في التاريخ"[7]، مبينا من خلالها نوعية الاختلاف وشدة التباين الكائن في القيم والمعايير بين الامم والشعوب. يمتاز فوكو على غرار مشروعه الفلسفي بكثرة التنظير وسعة التعقيد، الشيء الذي يتطلب منا أن نقف على هذا المشروع بتأني ويسر، لأننا في مقال كهذا لا يمكن أن نحيط بما آتى به فوكو، وإنما نسعى لمحاولة فهم الفكرة العامة التي

أوجدها فوكو، والتي عبرنا عليها من خلال عنوان المقال.

من أهم المفاهيم التي طرحها فوكو، موضوع الخطاب الذي ينجم عنه بالكاد مفاهيم أخرى متعددة ومتنوعة، الشيء الذي يصعب ضبط ما أراده فوكو من موضوع الخطاب، الذي ينجم عنه عناصر عديدة نوضحها على النحو الآتي:

تعريف الخطاب[8]، التشكيلة الخطابية.

أولا - تعريف الخطاب:

وبعد الانتهاء من مسألة الخطاب، سنعرج على مسألة التاريخ ، لإيجاد درجة الترابط والتناغم بينهما.

يعد الخطاب*** عند فوكو الوازع الذي يتحكم في مواضيعه المثارة، يعتبر الملفوظ الوحدة الأساسية لأي خطاب، فهو النواة المؤسسة لتشكيلة الخطابية "مثلما تنتمي الجملة إلى النص ، والقضية إلى مجموع استنباطي.غير أنه ، إذا كان انتظام الجملة ، يتحدد بقواعد اللغة،وانتظام القضية بقوانين المنطق،فإن انتظام العبارات يتحدد بالتشكيلة الخطابية ذاتها. لذا فإن انتماء العبارة وقانونهما يمثلان ذات الشيء، وليس في ذلك تناقض، ما دامت التشكيلة الخطابية ، لا تتميز إطلاقا بمبادىءبناء، بل بتبعثر حقيقين وهو تبعثر لا يمثل بالنسبة للعبارات شرط إمكانها بل قانون تواجدها، كما أن العبارات ليست عل الإطلاق عناصر قابلة للمبادلة بل هي مجموعات تتسم بنمط وجودها المتميز"[9].

حرص فوكو على تبيان خصوصية الخطاب في البيولوجيا والاقتصاد واللغةحيث "أن تحليل الخطاب بهذا المعنى، لا يكشف عن شمولية المعنى، بل يبرز لعبة ندرة الإثبات، وليست السخاء المستمر للمعنى، وليست أبدا مملكة الدال"[10].

كما جدد فوكو مفهوم الخطاب من خلال تعداد استراتجياته وتحليلاته، في كتاب أركيولوجيا المعرفة1972، وكتاب نظام الخطاب 1971.فيُعرف الخطاب في الكتاب الأخير ب"أنه مصطلح لساني ، يتميز عن نص وكلام وكتابة وغيرها بشكله لكل انتاج ذهني، سواء كان نثرا ، منطوقا او مكتوبا، فرديا أو جماعيا، ذاتيا أو مؤسساتيا، في حين أن المصطلحات الأخرى تقتصر على جانب واحد. وللخطاب منطق داخلي وارتباطات مؤسسية، فهو ليس ناتج بالضرورة عن ذات فردية يعبر عنها أو يحمل معناها أو يحيل إليها، بل قد يكون خطاب مؤسسة أو فترة زمنية أو فرع معرفي"[11]. ويبدو أن هذا التعريف سيليه تدقيق في كتاب حفريات المعرفة 1972، باعتبار أن الخطاب"مجموعة من العبارات بوصفها تنتمي إلى ذات التشكيلة الخطابية ، فهو ليس وحدة بلاغية او صورية قابلة لأن تتكرر إلى ما لانهاية ، يمكن الوقوف على ظهورها واستعمالها خلال التاريخ، بل هو عبارة عن عدد محصور من العبارات التي نستطيع تحديد شروط وجودها. فالخطاب، على هذا النحو ، ليس شكلا مثاليا، ولا زمانيا، له بالإضاقة إلى ذلك تاريخ. ولا يمكن جوهر المشكل في التساؤل عن أسباب انبثاقه وظهوره في هذه اللحظة المعينة من الزمن أو تلك، فهو تاريخي، من جهة إلى اخرى_جزء من الزمن ، وحدة وانفصال في التاريخ ذاته"[12]. فما يمكن أن نستخلصه من هذين التعريفين أن الخطاب حسب الطرح الفوكوي، يكتسي طابع عام يتجاوز النص الذي يبقى حبيس اللغة او القضية، ويدلي بما هو أهم ، والمتمثل في الملفوظات التي تشكل ذرة الخطاب ووحدته

الأصلية، التي يتفرع عن هذا الخطاب أيضا مواضيع أخرى كميدان الخطاب، والممارسات الخطابية، التشكيلات الخطابية أي ما يقال "الكلام " الذي يقتضي(منهج أركيولوجي)والغير الخطابية والمثملة في الأجهزة الأيديولوجية لدولة حسب ألتوسير، من مؤسسات وسلطات، التي تقتضي (منهج جينيالوجي) [13].ومن أجل الإلمام بغزارة التنظير لموضوع الخطاب، علينا أن ننوه إلى المسائل المتعلقة بالخطاب:

- معايير التكوين - الممارسة الخطابية - إستراتجية الخطابية.

سندلل على مواطن الارتباط بينهم، ونفك درجة التعقيد بغية توضيح موضوع الخطاب.

- **معايير التكوين:** يعتبرها فوكو المجموعة التي تحدد قواعد الممارسة الخطابية، من حيث اعتمادها على عنصر الزمن، فعملها منوط برسم معالم الموضوعات التي تظهر ، والملفوظات التي تُتَخذ، والمفاهيم التي تُجَدد وتتغير"فعلى هذا النحو، ما انفكت أحكام القضاء الإجرامي والضغط الديمغرافي، وطلب اليد العاملة...طيلة القرن التاسع عشر تتبدل وتتغير، لكن الممارسة الخطابية للطب العقلي واصلت إقامة نفس المجموعة من العلاقات بينها كعناصر، بحيث أن المنظومة حافظت على سمات فرديتها وتميزها، وانطلاقا من نفس قوانين التكون، برزت موضوعات جديدة... وأنماط جديدة من العبارات"[14]. فمنظومة التكوين بهذا، تهتم بطبيعة العلائق التي تشد الممارسات الخطابية دون المساس بالشكل العام لانتظام عناصر الخطاب.

- **الممارسة الخطابية:** يرى فوكو أن الممارسة الخطابية، تتحدد من خلال الاهتمام بالأصول، وهذا ما يدخل ضمن إطار الحقل التاريخي، الذي يحدد أشكال الممارسات الخطابية الموجودة والمحددة ضمن قواعد موضوعية وتاريخية مضبوطة بمجال زماني ومكاني، فهي تتجاوز الذات والعملية التعبيرية، وترتبط فقط بوظيفة الملفوظ داخل التشكيلة الخطابية"رغم أن فوكو يعلن أن مشاريعه المستقبلية ستتقاسمها المنهجية الأركيولوجية والجنيالوجية، إلا أن المتفحص، يستنتج أن الأركيولوجيا تنتمي أكثر إلى مرحلة الممارسات الخطابية، مرحلة الجنون والعقل والطب واللغة، أكثر من انتمائها إلى مرحلة الممارسات الغير الخطابية الخاصة بالسلطة والجسد والتي ستعالجها الجينيالوجيا"[15]. وهذا ما يؤكده فوكو في حفريات المعرفة، بأن "ما ندعوه الممارسة الخطابية، ليس بالإمكان الخلط بينها وبين العملية التعبيرية، التي يصوغ بها شخص فكرة أو رغبة أو صورة، ولا بينها وبين النشاط العقلي الذي هو أساس العمليات الاستدلالية، أو بينها وبين مقدرة الشخص على الكلام، حيث يركب جملا نحوية، بل هي مجموعة من القواعد الموضوعية والتاريخية المعينة والمحددة دوما في الزمان والمكان، والتي حددت في فترة زمنية بعينها، وفي نطاق اجتماعي واقتصادي وجغرافي ولساني معطى ، شروط ممارسة الوظيفة العبارية"[16].

- **الإستراتجية الخطابية:** تحتوي على عنصرين هامين الأول المتمثل في الخطاب" إذا ما تمكنا من تحديد القواعد النوعية التي تشكلت

وفقها موضوعات الخطاب وعباراته ومفاهيمه وخياراته النظرية"[17].كما أن الخطاب يعد موضوع لرغبة في السلطة "الخطاب شيء بين الأشياء، وهو ككل الأشياء موضوع صراع من أجل الحصول على السلطة،فهو ليس فقط انعكاسا للصراعات السياسية، بل هو المسرح الذي يتم فيه استثمار الرغبة، فهو ذاته مدار الرغبة والسلطة "[18].إضافة إلى العنصر الثاني والمتمثل في التشكيلة الخطابية، بتنوعها وفرديتها في رسم معالم الإستراتجية، وهذه الأخيرة لا تكون إلا وفق إرادة السلطة والمعرفة، وهذا ما سنوضحه في التشكيلات الخطابية في العنصر الموالي.

ثانيا - التشكيلة الخطابية:

تحتوي التشكيلة الخطابية على مجموعة من الفروض، طبقت أولا على تَكون الموضوعات، الذي لا يتكون إلا ضمن شروط وقواعد سنحت له بالوجود بعيد كل البعد عن أشكال الوجود القبلي، إضافة إلى طابع الفضاء الخارجي "الذي يسمح له بالظهور، لا الدخول في ارتباطات معقدة ومتعددة، لإبعاد مع موضوعات أخرى، يقترن بها من جهة ويبتعد عنها ويتميز من خلالها"[19]. وما يهم المنهج الأركيولوجي أنه يهتم بالتشكيلات الخطابية، التي تدخل في إطاره من خلال تحليل العلاقات الخطابية"يعني البحث عن قانون ذلك النقص، قياس وتحديد صورته النوعية. يعني بعبارة موجزة، قياس قيمة العبارات. وهي قيمة لا تتحدد بصدقها، ولا تقدر بحضور مضمون خفي فيها، بل بتميز مكانتها وقدوتها على التداول والمبادلة والتحول، لا داخل وفرة الخطاب فحسب، بل وكذلك داخل إرادة الموارد الطفيفة بوجه عام"[20].ثانيا الصيغ اللفظية، هذه التسمية يطلقها ولد أباه، يقصد بها قاعدة التوزع والتبعثر، التي تهتم بالملفوظات من حيث تسلسلها، وارتباطها بملفوظات أخرى تتحد معها في مجال الخطاب.ثالثا تكون المفاهيم وهو الافتراض الثالث الذي يحدد وظيفة الأركيولوجيا، على اساس أن الملفوظ يتحدد بنظام المفاهيم، إضافة إلى مسألة وصف التشكيلة الخطابية، عن طريق تبعثرها وتشتتها، بعيدا عن وحدة موضوعها وتسلسلها فحينما نتمكن من إثبات "تبعثر من هذا النوع، داخل عدد معين من العبارات ، وعندما نقف على شكل من أشكال الانتظام ... بين الموضوعات وأنواع التعبير والتصورات الإختبارية الفكرية. سوف نقول من باب الاصطلاح إننا أمام تشكيلة خطابية"[21].

كما يولي المشروع الفوكوي، أهمية بالغة لتوضيح النسق المنهجي لمقاربة المواضيع المطروحة (الكلمات والأشياء، تاريخ الحمق والعيادة)، من خلال تحديد اشكال التشكيلات الخطابية حيث "يقيم كتاب الحفريات تمييزا بين نوعين من التشكيلات العملية، تشكيلات (خطابية) أو عبارات، وأخرى (غير خطابية) أو أوساط"هذه الأوساط تنتج عبارات هي الأخرى، والعبارات تحدد بدورها الأوساط. إلا أن التشكيلتين متغايرتين، رغم اندماجهما: إذ العلاقة بينهما، ليست علاقة تقابل أو تناضر أو تبعية مباشرة، أو علاقة رمز بما يرمز إليه"[22].هنا يوضح فوكو من خلال كتاب تاريخ الحمق موضوعات التشكيلات الخطابية حيث يقسمها إلى قسمين بارزين فتشكيلة الخطابية تعبر عن الملفوظ من حيث إستراتجية توزيعه وانتشاره. والتشكيلة الغير الخطابية تعبر

عن المرئي، فهذا الأخير هو الذي ينمط صور الوجود، وهي كالآتي:

القسم الأول : يهتم بنظام التعبير أو الملفوظ عن مسالة الحمق والجنون، وهنا يرى فوكو "أن الوعي القانوني يكون عادة أكثر بلورة وأكثر دقة من البنيات التي يستخدمها القانون والمؤسسات التي تحتضنه"[23].

القسم الثاني،: ينشغل بالنظام المرئي أو أنظمة الإنارة، من خلال التمييز بين المستشفى العامة الخاصة بنظام التعبير الحمق، والطب الخاص بنظام التعبير الجنون. فهو بهذا يقدم صور وأشكال تنميط وتصنيف الواقع المعاش."الرؤى لا تنفصل على الآلات ، لا لأن أية آلة، هي آلة منظور، بل لأن مجموعة من الأعضاء والوظائف التي ترى شيئا ما من الأشياء وتخرجه إلى واضحة النهار(آلة السجن)" [24].

وهنا بين فوكو درجة التباين بين المرئي والملفوظ في موضوع السجن"فنحن هنا أمام نظام رؤية ونظام لغة ، لا ينتميان إلى نفس الشكل ، ولا ينتميان إلى ذات التشكيلة"[25]. فنظام اللغة أو التعبير القائم على وازع القانون الجنائي، يتضمن مفاهيم ورؤى تدافع عن المجتمع من خلال ربط الممارسات والأفعال والسلوك بالقانون، فأي تجاوز لهذا نجد أنفسنا أمام سيل جارف من القوانين لتكييف الخروقات والانحرافات. على عكس نظام الرؤية أو المرئي الذي يختلف أفقه مع نظام التعبير المشروح آنفا، حيث يقوم نظام المرئي المتمثل في السجن "أن يتحدد كنظام رؤية وكوسط منكشف يمكن فيه للحارس أن يرى الشاذة والفادة دون أن يرى، أن يراقب المعتقلين باستمرار دون أن يتمكنوا هم من رؤية اي شيء"[26].

ثالثا- فوكو والتاريخ:

نظرً فوكو لتاريخ الأوروبي انطلاقا في تفرده، على ما كان سائدا، معارضا التوجهات الفلسفية السائدة. فقد اختلف فوكو مع العقل الديكارتي، الذي يرى أن الذات قادرة على أن تسترجع وتتدارك أخطائها بواسطة منهج الرياضيات الدقيق والصارم. كما اختلف مع كانط حول مسألة الذات العارفة، على أساس أن التفكير الكانطي، يرى أن الذات تمتلك المرئي والملفوظ على شكل صور ما قبلية وكلية، يمكن توحيد الشتات الذي يعانيانه في لحظة من لحظات، "حيث لم تعد ثمة حاجة لإحالة عبارة ما إلا الكوجيطو ، ولا إرجاعها إلى ذات ترنسندنتالية تملك شروط إمكانها، أو اعتبارها من إبداع أنا يتلفظ بها للمرة الأولى(أو يستعيدها)أو القول بأنها تعكس"روح العصر"ما، تحتفظ بها وتنشرها وتعيد تقطيعها"[27]، ففوكو بهذا يؤكد على أن المرئي والملفوظ، هو نتاج واقع معاش، بعيد كل البعد عن ما هو قبلي وصوري، متحديا كانط بأن هذا القبلي والكلي، هو في حقيقة أمره، تاريخي أي واقعي ومعاش. إضافة إلى اختلافه مع كانط حول مسألة علاقة الدولة بالعقل، حيث يرى كانط أن الدولة هي المسئولة عن توجيه ورعاية العقل لبلوغ تطوره وتقدمه،" حيث سيشكل كتاب إرادة المعرفة مساهمة في بلورة بعض هذه المواقع ببحثه نوعية العلاقات بين المعرفة والسلطة والجسد...ليسائل الحقائق والسلطات في تشابك علاقاتها ودوام توترها واستمرار تقلباتها. إنه يتابع تحليليا كيفيات عملها

كاستراتجيات ليفكك الوهم الزاعم أن المعرفة معزولة عن السلطة"[28].

بهذا رسم فوكو معالمه الفكرية، بقوة تنظيرية عميقة، وبروح فكرية رحبة ومضيافة على موضوع التاريخ. من خلال التأكيد على ما وجب أن يكون عليه موضوع التاريخ، منتقدا هيغل ومفهوم التاريخ الشمولي العقلاني، الذي يرى أن الأحداث التي وقعت قد أملتها مطالب عقلية محضة. فيدمغ فوكو التاريخ الشمولي ونظرته الكلية، بأنه تاريخ متعالي يبرز الحدث التاريخي بأنه أعلى ما وجب الوصول إليه، إضافة إلى أنه تاريخ نفسي وفردي، يبحث عن تأويل ما يقولوه النص أو صاحب النص، وكأنه المسئول على معرفة طبيعة الوعي والعقل، هذا النقد العام للأطروحات الهيغلية، ساهم في الحد من النظرة الاتصالية للتاريخ وعمل على "أن يخلصه من الصورة التي ارتضاها لنفسه زمنا طويلا، وكان يجد فيها تبريره الأنتربولوجي:صورة ذاكرة عتيقة جماعية تستعين بالوثائق المادية لكي تستعيد الذكريات في حرارته...التاريخ هو كيفية من الكيفيات التي يدبر بها مجتمع مادة وثائقية لا ينفصل عنها"[29]. وهنا ينجلي لنا من الطرح الفوكوي جدية وغزارة منهجه الأركيولوجي التاريخي، الذي يناقش ويحاور المناهج التاريخية الأخرى بغية تعريتها وتبيان مواطن الضعف والهراء فيها، فهو يشجع على التاريخ لأنه فضاء مضياف على الميادين الأخرى من لسانيات واقتصاد...إلخ من جهة. كما يولي لتاريخ وظيفة التحرر من فلسفة التاريخ، التي تسجننا بحدودها المألوفة والمعهودة، كالعقل، والمعقولية من جهة أخرى.

فقد زعزعت فسلفة الأركيولجية هذه المعقولية التي رسمت لنفسها الأصل والتعالي لبلوغ الحقيقة المطلقة. فيؤكد فوكو في مشروعه على أن المعقولية والعقل في نهاية المطاف هي لغة النظام، تعبر عنه بصدق ووفاء، من خلال استشهاده بمسألة الجنون، حيث يوضح لنا الشوامل لهوامل مصادرة العقل للجنون، بجعله موضوعا صامتا، يقبل الولوج في مشرحة العقل الطب النفسي، الذي رضي بهذه المهام بعد أن أوكلت له من طرف العقل المدني السياسي. وهنا علينا أن نوضح اللبس الذي يقع فيه القارئ من خلال موقف فوكو من العقل، وهنا نستعين بأحد طلبته التونسيين فتحي تريكي بأن " في حقيقة الأمر ليس هناك عند ميشال فوكو إلغاء للعقل كما يدعي البعض، وليس هناك لجوء لما هو غير معقول ولا للجنون ولا لسيادة الغرائز والعواطف. وليس هناك تهديم للنظام والتنظيم، بل هناك تشهير بالهيمنة المطلقة التي حاول بواسطتها منظرو الفلسفة اليومية كما يحلو لميشال فوكو أن يعبر بها، أن يؤقلموا العقل مع مطامحهم ومصالحهم حتى يتسنى لهم –وهم ضعفاء حسب نيتشه- بأكاذيهم الملفقة أن يهيمنوا على العالم بواسطة زعمهم للوحدة الصماء للإنسانية"[30].

هكذا أعاد فوكو صياغة تقسيم التاريخ من خلال توضيح معالم ومضامين التاريخ التقليدي، والتاريخ الجديد، كما عالج حرفة وعمل المؤرخ، وما هي الأدوات الواجب امتلاكها، لتقديم معرفة تاريخية، مبينا قيمة الوثيقة وقصورها لمعرفة الخطاب السائد.وذلك"بالتنبيه إلى أنه من الواضح منذ أن وجد فرع معرفي كالتاريخ، أن الوثيقة كانت ضالة المؤرخين، استنطقوها

وطرحو بصددها تساؤلات ، فسألوها عما تريد أن تقوله فحسب، بل وعما إذا كانت تقول الحقيقة فعلا، وبأي حق تدعي ذلك، وما إذا كانت تقول الصدق أم تزيفه،على دراية بالأمور أم على جهل بها،حقيقة أم مزيفة"[31]. وبهذا تتوضح معالم التاريخ التقليدي، الذي يقوم وبصيغة حصرية على وصف الأحداث التاريخية، والتحولات الكبرى التي عرفها العالم من انتصارات عسكرية، ورهانات سياسية تمس بالسلطة والنظام فقط، وهذا ما يقتضي جمع المعلومات والمعطيات، بعد البحث والتنقيب عنها حيث"لم تبق الوثيقة بالنسبة للتاريخ، تلك المادة الخام التي يسعى من خلالها استعادة ماصدر عن الناس من أقوال وأفعال، واسترجاع ما ولى ولم يترك سوى أثرا يلزم اقتفاؤه. إنه يسعى إلى أن يحدد وحدات داخل النسيج الوثائقي، ويعين فيه مجموعات وسلاسل وعلاقات"[32]. عبر المساءلة والمحاسبة عن ظروف ميلادها وسبب اختفاء ملفوظاتها، ماهي لغة العصر أو روح العصر أي المركز التي كانت سائدة؟كل هذه التساؤلات تبدوا مفيدة، لتوضيح نقائص التاريخ التقليدي الذي كان " يسعى إلى أن يجعل من نصب الماضي وأثرياته ذاكرة، ويحولها إلى وثائق ويحث تلك الآثار التي غالبا ما تكون خرساء، في حد ذاتها، أو أنها تقول صمتا غير ما تقوله جهرا...حيث كان التاريخ التقلدي يكتفي بالتنقيب عن الآثار التي خلفها لبشر"[33]. وهنا يكشف فوكو حالة التاريخ التقليدي الجاف والجامد، كاشفا أساليبه التسلطية، وفاضحا منظومته المعرفية، مقدما مشروع يغلب عليه عاطفة الرغبة في تعويض هذا الخلل والعجز الذي اتصف به هذا التاريخ. فقد قدم فوكو البديل وما وجب أن يكون عليه التاريخ، من خلال تشعب عمله وتعقيد منهجيته وبعد رؤيته "فالتاريخ هو ما يحول الوثائق إلى نصب أثرية، ويعرض كمية من العناصر التي ينبغي عزلها والجمع بينهما وإبرازهما والربط بينها وحصرها في مجموعات"[34].

كما يبرز أهمية الفكر الفوكوي في توضيح المفارقات، وفك التناقضات بخيط رشيد، يشفع له بإيجاد مشروع فلسفي طموح، متمرد على المشاريع الفسلفية السابقة، وحاضنا لها في نفس الوقت. وهنا تبرز لنا مسألتين هامتين، طبعتا تاريخ منهج العلوم الإنسانية، والتاريخ على وجه الخصوص بمناقشات وإتراءات، خصبة جعلت من هذه العلوم والفهوم، أرضية مبنية على تعدد المدارس والفرق والمناهج. سنخص بالذكر في هذا الإطار مسألة القطيعة المعرفية، حسب طرح الباشلاري، ومسالة الاتصال المعرفي، ويوازي بينهما فوكو عبر مفهوم ثالث القائم على الحدثية، التي يراها فوكو حسب ما وجهته مدرسة الحوليات، بصيغة عامة حيث" قدمت مدرسة الحوليات تجاوز الحيز الحدثي، والتركيز على الحقب الطويلة وصرف النظر عن الحياة السياسية نحو النشاط الاقتصادي، وثوابت التنظيم الاجتماعي، وقد برزت هذه التوجهات باكرا في مقالات لوفيفر وبلوخ... كما ألح لوفيفر إلى ربط حقول الواقع الاجتماعي فيما بينها، وإبراز اقترانها الضروري كما الح على الدعوة إلى قلب ترتيبها: الصعود من الاقتصادي إلى السياسي بدل الانطلاق من السياسي نحو الاقتصاد"[35] . بمعنى أن فوكو لا يلغي فكرة الحدثية، بل يقوضها ويستبدلها بالفكر اللا حدثي في التاريخ ومنه تبرز أعماله كمؤرخ يهتم بالسجن ، ومرض الجنون ، والرغبة، هذه المواضيع

هي التي تفتح الباب والآفاق لتاريخ اللا حدثي، الذي تبرز فيه الفرديات، التي تغيب من الكلي في الخطاب التاريخي، ومن هذا تتفرع قضيتين متتاليتين:

القضية الأولى : يُتَهم فوكو من خلال مسألة الاتصال المعرفي، والقطيعة المعرفية، بأن أسلوبه غامض، ومتردد، وغير واضح المعالم، فهو أحيانا ينادي بالقطيعة، منتقلا بين كل عصر ابستيمي، وعصر لاحق، معتمدا على متغير اللغة، وما تفرضه من ممارسات خطابية تختلف عن ما كان سائدا، كما يؤكد على مسألة الاتصال من جهة أخرى.

القضية الثانية : هي حجر الزاوية وتتفرع إلى فرعين:

يجيب فوكو عن انشغالات القضية الأولى، أولا برصد حركة التاريخ التي لا تقوم على الاستمرارية وفق شكل خطي، حيث أن التاريخ يهتم بمسألة، الممارسة الخطابية التي تظهر وتأفل وفق شروط معينة، وبهذا يبقى الأصل هو المكان التي وقعت فيه الممارسة الخطابية، التي تفرض وجود مكانها، ودوامها وأفولها الزمني. الفرع الثاني، يعمل على تحديد أهمية الانفصال باعتباره" مفهوم اجرائي يوظف، لذا تبدلت ملامحه ولم يبق عيبا يقلل من قيمة القراءة التاريخية(ويكون علامة على فشلها وقصورها)، بل أضحى عنصرا إيجابيا يحدد موضوع تلك القراءة ويمنح تحليلها صلاحياته"[36]، كما يؤكد على الحدثية Evenementualité في تفرده وتنوعه من عصر إلى عصر آخر، حيث يُغيب من طرف الوازع الكلياني لتاريخ، الذي يعمل على تحويل التاريخ إلى علم تضبطه قوانين، وهذا ما نجده في النظرية الماركسية التقليدية وزمنيتها الخطية.

فهنا ينجلي لنا المشروع الفوكوي في نظرته الاستراتجية الواضحة، حيث أن هدفه الجوهري والأساسي من خلال كل هذا، هو توضيح أشكال ممارسات الخطاب وضبط حدثيه، وما موقع الملفوظات فيه، ضمن الخطاب التاريخي. فالحري في في مسائل التاريخ عليه أن "يسعى المؤرخ إلى كشف حدود حركة من حركات التطور، ونقطة انعراج منحنى من المنحيات، وانعكاس حركة منتظمة وأطراف اهتزاز من الاهتزازات وعتبة حركة من الحركات، ولحظة خلل عملية دائرية"[37]، فهذه العملية بدقتها ووضوح مطلبها، تكشف لنا مكانة وقيمة المؤرخ، كفاعل في انتاج الحقيقة، عبر مهامه الشاقة والعويصة، "فالواجب الاول للمؤرخ هو إثبات الحقيقة، والثاني هو جعل الحبكة مفهومة"[38].

انطلاقا من هذا المبدأ التاريخي المذكور، يوضح فوكو ويحرص على أن الانقطاع كأداة معرفية، وتحصيل حاصل لممارسة خطابية، ينبغى أن نتبعه بإيضاح معالم الحدثية داخل الخطاب، لهدم الشبكات والإستراتجيات التي تهندس وتمأسس لمعقولية التاريخ " ذلك أن التاريخ في ثوبه الكلاسيكي، كان يفترض الانفصال معطى لكنه غير قابل لأن يفكر فيه، إنه يظهر في صورة أحداث مبعثرة كالقرارات والحوادث والمبادرات والاكتشافات وما كان ينبغي الإحاطة به عن طريق التحليل بغية إلغائه ومحوه وإقصائه كي يظهر اتصال الأحداث"[39]. ومن هذا يتبن لنا دقة وصوابية الطرح الفوكوي بتوظيف تنائية الانفصال والاتصال من خلال توضيح معالم وطبيعة وظيفتها داخل حقل الممارسات

الخطابية. فهو يؤكد على زمانية "العقل المتسلسل المتصل، والذي هو زمان كان يصعد به دوما إلى أصله العسير البلوغ وينبوعه الاساسي ، مستويات وجيزة أحيانا، تتباين فيما بينها، وتأبى الرضوخ لقانون وحيد، ولا يمكن ردها إلى النموذج العام لوعي يكتسب وينمو ويتذكر"[40]، كما أن له موقف من هذه الاستمرارية، التي تترنح عن من قيل آنفا، وتريد سجن التاريخ والذات ضمن معطى مركزي ومطلق. فيشن فوكو على هذا، ترسانته المنهجية لتفكيك هذه الاستمرارية، ونسفها من داخلها، لنبذها وكشفها من خلال إثبات الانقطاعات الفكرية حيث "ينكب البحث حاليا على رصد عواقب الانقطاعات، تلك الانقطاعات التي تتباين كبيرا فيما يخص طبيعتها ووصفتها. مثل الافعال والعتبات الابستمولوجية التي وصفها باشلار والتي تقطع الطريق أمام التراكم اللامحدود للمعارف. فتطهرها مما علق بها من أوهام خيالية، وبذلك فهي تدفع التحليل التاريخي، لا إلى تقصي البدايات الصامتة، ولا إلى صعود اللامحدود نحو المهدين الأوائل، بل إلى رصد نمط جديد من المعقولية، ورصد نتائجه المتعددة"[41]. يذهب فوكو في تحليله لمسألة الانقطاع أكثر من هذا حيث يصفها بأنه"مفهوم الانفصال:هو أداة البحث وموضوعه في نفس الوقت، يعين حدود الحقل الذي يتولد فيه، ويسمح بتعيين تفرد الميادين، التي لا يمكننا تحديده إلا بفضل المقارنة بينهما ولأنه في نهاية الأمر، ليس مجرد مفهوم قائم حاضر في خطاب المؤرخ، بل يفترضه هذا الأخير وينطلق منه ضمنيا من أنه قائم ، وإلا فمن أي موقع يستطيع أن يتكلم إن لم يكن انطلاقا من ذلك الانفصال الذي يمده بالتاريخ كموضوع بتاريخه هو"[42]. بهذا ظل فوكو معارضا لمبدأ الأصل والكليانية التاريخية، مصمما على أن موضوع التاريخي ليس أصل البدء ، ولا التطور والرقي، بقدر ما هو في الحقيقة سوى المناداة بأصل التبعثر الموجود في أمكنة وأزمنة متعددة ومتنوعة ومتفردة.

د. بومحراث بلخير
جامعة وهران2

الهوامش:

[1]- الزواوي بغورة،مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، المجلس الأعلى للثقافة،2000، 110.

[*] حظيت أعمال فوكو بترحاب كبير داخل اوساط النخبة العربية ، من خلال دراسة مشروعه الفلسفي عبر ترجمته، لجمهور واسع وعريض في المنطقة العربية ، الشيء الذي أدى إلى عدم وجود اجماع حول ترجمة مفاهيمه:
فنجد حفريات في ترجمة سالم يفوت عوض أركيولوجية التي نالت جواز الاستعمال في القاموس اللغوي العربي.
كما نجد ملفوظات ومنطوقات كترجمة ل(s)Enoncé ، ونجد أيضا عبارات كترجمة ل(s)Enoncé ، في كتاب جيل دلوز، المعرفة والسلطة مدخل لقراءة فوكو ، ترجمة سالم يفوت،الدرا البيضاء، المركز الثقافي العربي،ط1 ،1987. إلا أن عبد العزيز العيادي في كتابه "ميشال فوكو المعرفة والسلطة"يرى أن منطوق _عُدَّة تقابلها Dispositif، وملفوظة_ملفوظات تقابلها Enoncé(s)

ونحن من هذا كله سنوظف مصطلح ملفوظ ك Enoncé

[2] - الزواوي بغورة،المرجع السابق،ص366.

[3] - المرجع نفسه،ص113.

[4] - المرجع نفسه،ص352.

[5] - ميشال فوكو، نسابية الأخلاق،حوار مع هيوبرت دريفوس وبول رابيتوف، ضمن كتابهما: فوكو: مسيرة فلسفية(تعريب جورج أبي صالح)مركز الإنماء القومي، بيروت، بدون تاريخ، ص204.

[6] - السيد ولد أباه، التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، بيروت، دار المنتخب العربي لدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1994، صص84، 85.

[**]"يحدد فوكو بوضوح ثلاثة ميادين من الانطولوجيا الممكنة: انطولوجيا تاريخية من حيث علاقتنا بالحقيقة، تنتج تأسيس أنفسنا كذوات معرفية، انطولوجيا تاريخية لذواتنا، من حيث علاقتنا بحقول السلطة، حيث تكون كذوات تؤثر في آخرين وأخيرا انطولوجيا تاريخية لعلاقتنا بالحقيقة تتيح لنا أن نكون أنفسنا كذوات أخلاقية.

إنها الخطة التي تتبعها فوكو، عبر استقصائه لميادين العلوم التجريبية ، والممارسات العقوبية، وممارسات الرغبة."راجع:

- السيد ولد أباه، - السيد ولد أباه، التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، بيروت، دار المنتخب العربي لدراسات والنشر والتوزيع،ط1،1994 صص 84،85.

[7] - ميشال فوكو،حفريات المعرفة،ترجمة سالم يفوت، بيروت،المركز الثقافي العربي،ط2،1987 ص.15

[8] - يمتاز فوكو بخطاطاته التأملية والفلسفية، فهو مفكر مضياف ظل وفيا لمنهجه الحفري والجينيالوجي، فما نود الإشارة إليه أن فوكو قدم العديد من التنظيرات لمسألة الخطاب، والتي لا يمكن لنا الإحاطة بها كلها بل نحاول أن نشير إليها في هذا الموضع والمتمثلة في: أولا: معايير الخطاب: 1- التكون 2- التحول 3- الاقتران.

راجع في هذا الصدد:السيد ولد أباه، التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، بيروت، دار المنتخب العربي لدراسات والنشر والتوزيع،ط1، 1994ص110. الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، المرجع السابق،صص 118_119.

كما يوجد عنصر آخر المتمثل في مبادئ الخطاب: الندرة، التراكم، الخارجية، القبلي التاريخي، راجع ايضا:ميشال فوكو،حفريات المعرفة،المرجع السابق،ص109- 123. الزواوي بغورة، المرجع السابق،ص118_120.

[***]هناك لبس في المعجم اللغوي لترجمة كلمة Discours ، فأحيانا يترجم ب مقال ، وأحيانا بخطاب، ونحن نتبع ترجمة خطاب، راجع في هذا الصدد الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، مرجع سابق

[9] - ميشال فوكو،حفريات المعرفة،المرجع السابق، ط2،1987، ص 108.

[10] - ميشيل فوكو، نظام الخطاب، ترجمة محمد سبيلا، بيروت، دار النشر التنوير،2007، ص38.

[11] -المرجع نفسه،ص4.

[12]- ميشال فوكو،حفريات المعرفة،المرجع السابق،ص.108

13- "أصبحت الجنيالوجيا تحمل معنين مختلفين، لكنهما متكاملين، فهي تعني من جهة البحث في الأصول، ومن جهة اخرى البحث في التطوروالرقي.إن هذا المعنى ينعكس في ثلاث مجالات اساسية، الأولى في مجال التاريخ والمجتمع، ويعني بالبحث في أنساب العائلات، والثاني في مجال البيولوجيا ويعني بالبحث في مجال الأنواع والكائنات الحية، والثالث في مجال الفلسفة، ويعني بالبحث في أصل الأحكام الأخلاقية" راجع: الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، مرجع سابق ص127.

14 - ميشال فوكو،حفريات المعرفة،المرجع السابق،ط2، ص67 .

15 - الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، المرجع السابق،ص131.

16- ميشال فوكو،حفريات المعرفة،المرجع السابق،ص.109

17 – المرجع نفسه،ص.67

18 - ميشيل فوكو،نظام الخطاب، المرجع السابق،ص49.

19 - السيد ولد أباه، التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، المرجع السابق، ص.111

20 - ميشال فوكو،حفريات المعرفة،المرجع السابق، ص 112 .

21 – المرجع نفسه، ص 37 .

22- جيل دلوز،المعرفة والسلطة مدخل لقراءة فوكو،ترجمة سالم يفوت،بيروت، المركز الثقافي العربي، 1987،ص37.

23 - ميشيل فوكو،تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ترجمة سعيد بنكراد، بيروت، المركزالثقافي العربي، ط1، 2006 ، ص.152

24 - جيل دلوز،المعرفة والسلطة مدخل لقراءة فوكو،المرجع السابق،ص65- .66

25 - المرجع نفسه،ص.39

26- المرجع نفسه،ص.38

27- المرجع نفسه،ص10.

28- عبد العزيز العيادي، ميشال فوكو المعرفة والسلطة،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1،1994، ص10 .

29 - ميشال فوكو،حفريات المعرفة، المرجع السابق،ص8.

30 فتحي التريكي،" نقد فلسفة المركز عند فوكو وفلاسفة الإختلاف"، مجلة أوراق فلسفية،العدد26،2009- 2010 ،القاهرة.

31- ميشال فوكو،حفريات المعرفة، المرجع السابق ،ص8.

32 - المرجع نفسه ،ص8.

33- المرجع نفسه ،ص9 .

34- المرجع نفسه ،ص9 .

35 - المرجع نفسه ،ص.11

36- السيد ولد أباه، التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، المرجع السابق، ص31.

37- ميشال فوكو،حفريات المعرفة، المرجع السابق ،ص.10

38 - بول قيين، أزمة المعرفة التاريخية فوكو وثورة في المنهج، ترجمة ابراهيم فتحي،، القاهرة، ط1 ، 1993 ،221 .

39- ميشال فوكو،حفريات المعرفة، المرجع السابق، ص.10

40- المرجع نفسه ،ص.10

41 - المرجع نفسه ،ص.6

42 – المرجع نفسه،ص10.